

تأويل قوله تعالى
﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

تأويل قوله تعالى : (وهمّ بها) أ.د. عبدالجبار فتحي زيدان الحمداني

الطبعة الأولى : ٢٠٢٢ م - ١٤٤٣ هـ

تأويل قوله تعالى : (وهمّ بها) أ.د. عبد الجبار فتحي زيدان الحمداني

دار نون للطباعة والنشر والتوزيع
الموصل-المجموعة الثقافية
الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ=٢٠٢٢م

تأويل قوله تعالى : (وهمّ بها) أ.د. عبدالجبار فتحي زيدان الحمداني

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه
ومن والاه ، وبعد .

فقد خاض الخائضون في تأويل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ
بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ {يوسف : ٢٤} أ هم يوسف عليه السلام أم لم يهم ؟
وإذا كان قد هم فما نوع هذا الهم وما بلغ ؟ ولم تكن غايتي في الكتابة في هذا
الموضوع أن أقول شيئاً ما قيل ؛ لأنه ما من شيء يتعلق في تفسير هذه الآية
إلا وتكلم فيه المفسرون حتى إتهم لم يتركوا لغيرهم شيئاً يقوله ، بيد أنني رغبت
في أن أنبه القارئ على المحذور ، وأذكره بأصدق ما قيل في هذه القضية ،
وهو أن يوسف عليه السلام لم ينو الوقوع في الفاحشة بل لم يهم بها أصلاً ،
وهذا ما سيجده القارئ في هذا الكتيب

وإنه من الضروري أن نعرف معنى الهم قبل عرض مذاهب المفسرين
في تفسير هذه الآية

معنى الهم : ((الهم : ما هممت به في نفسك ، تقول : أ هممتي هذا
الأمر ، والهم : الحزن ، والهمة : ما هممت به من أمر لتفعله ويقال :
أ هممتي الشيء : أي : أحزنتني ، و هممتي : أذابني))^(١) ((ومعنى الهم في كلام
العرب : حديث المرء نفسه بمواقفته ما لم يواقع))^(٢) و ((الهم : ما هممت
به))^(٣) ((وهممت بالشيء أهمة همماً : إذا أردته))^(٤) و ((همم بالأمر يهمم : إذا

(١) العين للفراهيدي ص ١٠١٩ وينظر : تهذيب اللغة للفراهيدي ٣٧٩٧/٤ ولسان العرب
لابن منظور ٩٥/١٥

(٢) جامع البيان ٢١٨/١٢

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس ص ٩٢٣

(٤) الصحاح للجوهري ص ١١٠٧

عزم عليه))^(١) ((والهمم : أول العزيمة ٠٠٠ وهممت بالشيء همًا من باب (قَتَلَ) : إذا أردته ولم تفعله))^(٢) ((والهمم : ما همم به في نفسه ، أي : نواه وأراده وعزم عليه))^(٣) والهمم : الحزن الذي يذيب الإنسان ، والهمم ما هممت به نفسك ويكاد يذيبك حتى تفعله ، ومن ثم قال الشاعر : وهمك ما لم تمضه لك منصب^(٤) ((والهمم ترجيح قصد الفعل : تقول : هممت بكذا ، أي : قصدته بهمتي ، وهو فوق مجرد خطور الشيء بالقلب))^(٥)

اتفق المفسرون على أنّ المرأة همّت بيوسف بالمعصية حتى استأثقت للجماع ، لكنهم اختلفوا في همّ يوسف بها على مذهبين عامين :

المذهب الأول : أنّ يوسف عليه السلام قد همّ ، لكنهم اختلفوا في درجة هذا الهمّ وما بلغ ونوعه على أقوال :

القول الأول : أنّ همّ يوسف عليه السلام بلغ منتهاه قبل أن يصرفه البرهان عمّا همّ به : قال الطبري : ((فأما ما كان من همّ يوسف بالمرأة وهمّها به ، فإنّ أهل العلم قالوا في ذلك ما أنا ذاكره ، وذلك ما يأتي ٠٠٠ عن أبي مليكة عن ابن عباس سئل عن همّ يوسف ما بلغ ؟ قال : حلّ الهميان ، وجلس منها مجلس الخاتن ٠٠٠ استأثقت له وجلس بين رجليها وحلّ ثيابه أو ثيابها ٠٠٠ استأثقت على قفاها وقعد بين رجليها لينزع ثيابه ٠٠٠ عن مجاهد قال : حلّ السراويل حتى التبان ٠٠٠ جلس مجلس الرجل من امرأته ٠٠٠ عن أبي بزة قال : أمّا همّها به فاستأثقت له ، وأمّا همّه بها فإنّه قعد بين رجليها ونزع ثيابه

(١) (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري ٩١٣/٢)

(٢) (المصباح المنير للفيومي ص ٦٤١)

(٣) (تاج العروس للزبيدي ٦٧/٣٤)

(٤) (ينظر : المفردات للراغب ص ٥٧٠ وعمدة الحفاظ للحلي ٢٦٠/٤)

(٥) (فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني ٤٠٧/١١)

٠٠٠ عن سعيد بن جبير وعكرمة قالوا : حلّ السراويل وجلس منها مجلس الخاتن ٠٠٠ عن سعيد بن جبير قال : أطلق تكة سراويله ٠٠٠ فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو الله نبيّ ؟ قيل : إنّ أهل العلم اختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم : كان ممن ابتلي من الأنبياء بخطيئة ، فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله عزّ وجلّ على وجلّ إذا ذكرها فيجدُ إشفاقاً منها ، ولا يتكل على سعة عفو الله ورحمته))^(١)

فقد تبين أنّ هذا ما قال به جمهور السلف من المفسرين القدامى كابن عباس ، وأبي مليكة ، ومجاهد ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسُدّي ، بأنّ يوسف عليه السلام ، همّ بأن يواقع المرأة حتى حلّ سراويله وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، ولولا أنّه رأى برهان ربّه لأمضى ، وفي البرهان الذي رآه عدة أقوال ، فعن ابن عباس أنّه رأى صورة يعقوب عاضاً على إصبغه ، وعن قتادة : نودي : يا يوسف ، أتهمّ بفعل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟! وقيل : قامت إلى صنم فسترته بثوب ، فقال : أيّ شيء تصنعين ؟ فقالت : استحي من إلهي هذا ، فقال يوسف : تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحي أنا من ربّي السميع البصير))^(٢)

قال الطبري : ((وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إنّ الله جلّ ثناؤه أخبر عن همّ يوسف بامرأة العزيز كلّ منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربّه ، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما همّ به يوسف

(١) جامع البيان ١٢/٢١٨-٢٢٠

(٢) ينظر : تفسير مقاتل ١٤٥/٢ وجامع البيان للطبري ١٢/٢١٨-٢٢٧ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٣/٣ والوسيط للواحدى ٦٠٧/٢ والملخص في إعراب القرآن للخطيب التبريزي ص ٤٤-٤٥ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/١٥٦ وفتح القدير للشوكاني ٣/٢٣

من الفاحشة ، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب ، وجائز أن تكون صورة الملك ، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على (الزنا))^(١)

وقال الزجاج : وهذا هو قول ((أكثر المفسرين ٠٠٠ وهذا مذهب أهل التفسير ، ولسنا نشكّ أنه قد رأى برهاناً قطعه عما همّ به))^(٢) وفي تهذيب اللغة : ((وأخبرني المنذري عن أبي العباس ثعلب أنه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فقال : همّت زليخا بالمعصية مصرّة على ذلك ، وهمّ يوسف بالمعصية ولم يأتها فبين الهمّين فرق))^(٣)

وقد شبهوا حال همّه بحال همّ غيره من البشر قال ابن الجوزي ((واختلفوا في همّه بها على خمسة أقوال : أحدها : أنه كان من جنس همّها ، فلولا أنّ الله تعالى عصمه لفعل ، وإلى هذا ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير والضحاك والسُدّي ، وهو قول عامّة المفسرين المتقدمين ، واختاره من المتأخرين جماعة منهم : ابن جرير ، وابن الأتباري ، وقال ابن قتيبة : لا يجوز في اللغة : هممتُ بفلان وهمّ بي ، وأنت تريد اختلاف الهمّين ، واحتجّ من نصر هذا القول بأنّه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر ، ويدلّ عليه ٠٠٠ البرهان الذي رآه ، قالوا : ورجوعه عما همّ به من ذلك خوفاً من الله تعالى يمحو عنه سيئ الهمّ ، ويوجب له علو المنازل ، ويدلّ على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنّ ثلاثة خرجوا فلبجوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة ، فقالوا : ليذكر كلّ منكم أفضل عمله ، فقال أحدهم :

(١) جامع البيان ٢٢٧/١٢

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٨٢/٣

(٣) تهذيب اللغة للأزهري ٣٧٩٨/٤

اللهم إني أعوذ بك من أن أكون من هؤلاء الذين يفترون على الله ، فلما أتيتها بها ، وجلستُ منها مجلس الرجل من المرأة أرعدتُ وقالت إن هذا لعمل ما عملته قطُ ، فقمْتُ عنها وأعطيتها المئة دينار ، فإن كنت تعلم أنني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عني ، فزال ثلث الحجر ، والحديث معروف))^(١) وقد روى هذا الحديث البخاري ولفظ آخره : فلما قعدتُ بين رجلها فقالت : اتق الله ، ولا تفضنَّ الخاتم إلا بحقه ، فقمْتُ^(٢) ورواه مسلم ولفظ آخره : فلما قعدتُ بين رجلها ، قالت يا عبد الله ، اتق الله ، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمْتُ عنها^(٣)

ولا يصحُّ تشبيههم يوسف عليه السلام بزليخا بهم هذا الرجل بابنة عمه ؛ لأنه لا يصحُّ أن يجعل ما فعله الرجل ، بتقدير : وهمم بها لولا أن ذكرته بنت عمه بمخافة الله ، على نحو ما جاء في شأن يوسف عليه السلام : ﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بل وجب جعله بتقدير : وواقعها لولا أن ذكرته بنت عمه بمخافة الله ، وعليه نقول : إنه لو كان حال يوسف عليه السلام كحال هذا الرجل لقليل : وواقعها لولا أن رأى ربه .

فلا يصحُّ القبول بهذا التشبيه ، ولا بالأمر التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام التي منها بأنه همم بأن يواقع المرأة حتى حلَّ سراويله ، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، ولولا أنه رأى برهان ربه لأمضى ؛ لأن هذا يعني أن يوسف عليه السلام فعل كلَّ شيء من مراودة وتقويل وضَمِّ ومعاينة ونحو ذلك إلا الزنا ، وأنه فعل ما نهى الله عنه وحرَّمه وجاء بالمعصية ، لأن الله سبحانه ما نهانا عن الزنا فحسب بل نهانا عنه وعن كلِّ ما يقرب منه ويفضي إليه ،

(١) زاد المسير ١٥٦/٤

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/٦٥٣ رقم الحديث ٣٤٥٦

(٣) شرح صحيح مسلم لابن عثيمين ٨/١٥ رقم الحديث ٢٧٤٣

قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ ۗ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ {الإسراء : ٣٢} وهذا ما صرح به أصحاب هذا المذهب ، كما تقدّم ، بأن الله سبحانه قد ابتلى يوسف عليه السلام بهذه الخطيئة ؛ حتى قال القرطبي : ((وقيل : إنّ همّ يوسف كان معصية ، وأتته جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم فيما ذكر القشيري أبو نصر وابن الأنباري والنحاس والماوردي ٠٠٠ قالوا : والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص ، وأعظم للثواب)) (١)

وقال ابن الجوزي : ((قال بعض العلماء : كان همّ يوسف خطيئة من الصغائر الجائزة على الأنبياء ، وإنّما ابتلاهم بذلك ليكونوا على خوف منه ؛ وليعرفهم مواقع نعمته في الصّبح عنهم ، وليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة ، قال الحسن : إنّ الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعبيراً لهم ؛ ولكن لئلاّ تقنطوا من رحمته ، يعني الحسن : أنّ الحجة للأنبياء ألزم ، فإذا قبل التوبة منهم ، كان إلى قبولها منكم أسرع ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : ما من أحد يلقى الله تعالى إلّا وقد همّ بخطيئة أو عملها إلّا يحيى بن زكريّا ، فإنّه لم يهّم ولم يعملها)) (٢)

وهذا الذي ذهب إليه جمهور السلف من المفسرين المتقدمين يعني أنّ يوسف عليه السلام لم يهّم بها فحسب ، بل خطا عدة خطوات في هذا الهمّ حتى إذا بلغ آخرها واقترب من مخالطتها رأى البرهان فقام عنها ، كما جاء في قصة أصحاب الغار الثلاثة ، ولو أريد هذا المعنى كما قلتُ ، لقيل : وواقعها لولا أنّ رأى برهان ربّه ، فيكون البرهان قد عصمه من مواقعها وليس من همّه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢١/٩ - ١٢٢

(٢) زاد المسير في علم التفسير ١٥٩/٤

بها ، لكن لما قال سبحانه ﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أفاد أن البرهان عصمه من الهمّ لا من الزنا

وما قاله أصحاب هذا المذهب عن يوسف عليه السلام ((كذب وإفك ولو صحَّ الإسناد ، وما ضعف إسناده فمن السهل إسقاطه ، وهو ما روي عن ابن إسحاق وابن عباس وغيرهم ، وما ثبت إسناده وصحَّ وهو مأخوذ عن الإسرائيليات ، قال ابن تيمية رحمه الله : والقرآن أخبر عن يوسف عليه السلام من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره ، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إمّا مصرّاً وإمّا تائباً ، والإصرار ممتنع ، فتعيّن أن يكون تائباً ، والله سبحانه لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفاراً كما ذكره عن غيره من الأنبياء فدلّ ذلك على أنّ ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة ، كما أخبر تعالى : ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ {يوسف : ٩٠} (١)

وقال أبو حيّان الأندلسي : ((طوّل المفسرون في تفسير هذين الهمّين ، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسّاق ٠٠٠ وأما أقوال السلف فنعتقد أنّه لا يصحّ عن أحد منهم شيء من ذلك ؛ لأنّها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً ، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة)) (٢)

القول الثاني : أنّ يوسف عليه السلام قد همّ بالمرأة لكن ليس كما ذهب جمهور المفسرين ، بل كان همّه بها مجرد خاطر وحديث نفس (٣) وقد

(١) مجموع الفتاوى ١٤٨/١٥ ، ١٤٩ الجامع لأحكام القرآن ١٢١/٩ هامش رقم (١) كلام المحقق

(٢) البحر المحيط ٣٨٣/٥

(٣) ينظر : زاد المسير ١٥٧/٤

وقع في قلبه هذا الخاطر وهذا الحديث النفسي بتأثير ثوران الشهوة التي أوصلته إليها امرأة العزيز بمراودتها له وإظهار مفاتها الأنثوية أمامه ، فقد ((احتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة ، وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة))^(١)

قال ابن قتيبة ((يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوباً ، ويحملهم التنزيه لهم صلوات الله عليهم على مخالفة الله جلّ ذكره واستكراه التأويل وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة ٠٠٠ كتأويلهم في قوله تعالى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ {طه : ١٢١} أي : بشم من أكل الشجرة ، وقد أكل آدم صلى الله عليه وسلم من الشجرة التي نُهي عنها باستئزال إبليس وخدائعه إياه بالله ، والقسم به إنّه لمن الصالحين حتى دلّاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن إرصاد وعداوة وإرهاص كذنوب أعداء الله ، فنحن نقول : عصى وغوى ، كما قال الله تعالى ، ولا نقول : آدم عاص وغاو ؛ لأنّ ذلك لم يكن عن اعتقاد متقدم ولا نية صحيحة ، كما نقول : الرجل قطع ثوباً وخاطه ، قطعه وخاطه ، ولا تقل : خائط ولا خياط حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به ، وكتأويلهم في قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ {يوسف : ٢٤} أنّها همت بالمعصية ، وهم بالفرار منها ، وقال بعضهم : هم بضربها ، والله يقول : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أفتراه أراد الفرار منها أو الضرب لها ؟ فلمّا رأى البرهان أقام عندها وأمسك عن ضربها؟ هذا ما ليس به خفاء ولا يغلط متأوله ، ولكنها همت منه بالمعصية هم نية واعتقاد ، وهم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم همّاً عارضاً بعد طول المراودة وعند حدوث الشهوة التي أتت بها النبيون في هفواتهم ٠٠٠ فهذا يدلّك على أنّ أكثر زلات الأنبياء من هذه الجهة ، وإن كان لا يأتون في شيء منها بفاحشة ؛ بنعم الله عليهم ومثّه ،

فإنّ الصغير منهم كبير ؛ لما آتاهم الله من المعرفة واصطفاهم له من الرسالة ، وأقام عليه من الحجة ؛ ولذلك قال يوسف صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣] يريد ما أضمره وحدث بها نفسه عند حدوث الشهوة ، وقد وضع الله تعالى الحرج عمّن همّ بخطيئة ولم يعملها))^(١)

وقال ابن عطية : ((فلا يجوز عليه عندي إلّا الهمّ الذي هو الخاطر))^(٢)

وقال : إنّ همّه بها ((إنّما كان بخطر القلب التي لا يقدر البشر من التحفظ منها ، ونزع عند ذلك ولم يتجاوزها ، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام ، وفي الحديث : إنّ من همّ بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات ، وفي حديث آخر حسنة ، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف))^(٣)

ولا يصحّ الاستشهاد بهذا الحديث في تأويل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لأنّ نعمة فرقا أساسيا بينهما ، فالحديث أثبت الهمّ بالسيئة ، ونفى فعلها ، في حين أنّ الآية نفت الهمّ بالسيئة فضلا عن فعلها .

وقال القاسمي في تأويل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ : ((وهذا معنى قولهم : الهمُّ هَمَّان : همٌّ ثابت معه عزم وقصد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ، وهمٌّ بمعنى خاطر وحديث نفس من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به ؛ لأنّه خطور المناهي في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان ، وروى الشيخان وأهل السنن

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٠-٢٣١

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٣٤/٣

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٣٤/٣

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به ، ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما ، فمعنى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أي : بمخالطته ، أي : قصدتها وعزمت عليها لا يلويها عنه صارف بعدما باشرت مبادئها من المروادة وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ، ومعنى قوله ﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي : لولا رؤيته برهان ربه لهمم بها كما هممت به ؛ لتوقر الدواعي . . .

وكذا قال أبو السعود إن همم بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه (شدته) ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه قصدتها قصداً اختيارياً . . . وإنما عبر عنه بالهمم لمجرد وقوعه في صحبة هممها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ، ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يُلَزَّ في قرن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هممًا بالمخالطة ، أو همم كل منهما بالآخر ، وصدّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي : حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله ، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة اليقين ، وكأنته عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان على ما عليه في حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه . . . وجواب (لولا) محذوف يدلّ عليه الكلام ، أي : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلي ، ولكن حيث كان مشاهدًا من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . . .

وحقيقة عصمة الأنبياء في نزاهتهم وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بُعثوا لتزكية الناس منها لئلا يكونوا قدوة سيئة مفسدين للأخلاق

والآداب ، وحبّة للسفهاء على انتهاك حرّمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزّهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري .

هذا وقد أُلصق هنا بعض المفسرين المولعين بسرد الروايات ما تلقفوه من أهل الكتاب ومن المتصولحين ، من تلك الأفاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام في همّه التي أنزّه تأليفي عن نقلها بردها ، وكلّها كما قال العلامة أبو السعود خرافات وأباطيل ، تمجّها الآذان ، وتردّها العقول والأذهان ، ويل لمن لاكها ولقّها ، او سمعها وصدّقها))^(١)

ومعنى : لم يُلَزَّ في قرَن واحد : لم يُلصقا وبضماً ولم يُقترنا في تعبير

واحد

وذكر الخطيب الفخر الرازي في تفسيره الكبير : أنّ كلّ من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عن المعصية ، والذين لهم تعلق بهذه الواقعة : يوسف ، والمرأة ، وزوجها ، والنسوة الشهود ، وربّ العالمين ، وإبليس ، فأما يوسف ، صلوات الله وسلامه عليه ، فادّعى أنّ الذنب للمرأة : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ {يوسف : ٢٦} و﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ {يوسف : ٣٣} وأما المرأة فاعترفت بذلك ، وقالت للنسوة ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ {يوسف : ٣٢} وقالت : ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ {يوسف : ٥١} وأما زوج المرأة فقوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ {يوسف : ٢٨} يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَعْفَرِي لِدُنْبِكَ ۖ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ {يوسف : ٢٨-٢٩} وأما الشهود فقوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ {يوسف : ٢٦} وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله :

(١) محاسن التأويل / تفسير القاسمي ١٦٧/٦-١٦٨ وينظر : روح المعاني للألوسي

٤٠٥/٦ والكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين ٥٢٧/٦

﴿وَكَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ {يوسف :

٢٤} فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرّات

أولها : ﴿وَكَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾

وثانيها : ﴿وَكَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾

والثالث : قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ مع أنه تعالى قال

: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

سَلَامًا﴾ {الفرقان : ٦٣}

والرابع : قوله ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل (بكسر

اللام) وأخرى باسم المفعول (بفتح اللام) وهذا يدلّ أنّ الله تعالى استخلصه لنفسه

، واصطفاه لحضرته ، وأمّا إقرار إبليس بطهارته فقوله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ {٨٢} لَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ {ص : ٨٢-٨٣} فهذا إقرار من

إبليس بأنّه ما أغواه ، وما أضلّه عن طريق الهدى ، فثبت بهذه الدلائل أنّ

يوسف عليه الصلاة والسلام بريء عمّا يقوله هؤلاء ومع هذا كلّه لم يبرئه أهل

القصص ، عفا الله عنهم (١)

وأصحاب هذا القول وإنّ نزهوا يوسف عليه السلام مما قاله أصحاب

القول السابق لا يختلفون عنهم في أنّ البرهان صرفه عن الزنا وليس عن الهمّ

فها هو الزمخشري على الرغم من أنّه أنكر بشدة ما قال به أصحاب

القول السابق إذ قال : ((فقد فسّرهم يوسف بأنّه حلّ الهميان وجلس منها

مجلس الجامع ، وبأنّه حلّ تكة سراويله ، وقعد بين شعبها الأربع ، وهي

مستلقية على قفاها ، وفسّر البرهان بأنّه سمع صوتاً : إيّاك وإياها ، فلم يكثر

(١) ينظر : اللباب في علوم الكتاب ٦٣/١١-٦٤ ومحاسن التأويل ١٦٩/٦

، فسمعه ثانيًا فلم يعمل به ، فسمع ثالثًا ٠٠٠ فلم ينجح فيه حتى مثل له يعقوب ، عاضًا على أناملته ٠٠٠ فيا له من مذهب ما أفحشه ، ومن ضلال ما أبينه))^(١) وعلى الرغم من أنه بين رأيه الآتي فقال : ((فإن قلت : كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها ؟ قلتُ : المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه (يعني : شهوة الشباب وشدته) ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه ٠٠٠ وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمّى همًّا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأنّ استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ولو كان همّه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأته من عباده المخلصين))^(٢) فعلى الرغم من أنه استبشع وأنكر ما قال به أصحاب القول السابق ، وصرّح بتزييه مما نسبوه إلا أنه جعل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها ، فحذف^(٣)

وكذلك البيضاوي جعل الآية بهذا التقدير على الرغم من أنه نزه يوسف عليه السلام مما نسبته إليه أصحاب القول الأول ، فقد قال : ((﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ وقصدت مخالطته وقصد مخالطتها ، والهمّ بالشيء قصده والعزم عليه ٠٠٠ والمراد بهمّه عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكفّ نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمّ أو مشاركة الهمّ

(١) الكشاف ٤٣٩/٢ - ٤٤٠

(٢) الكشاف ٤٣٨/٢

(٣) الكشاف ٤٣٨/٢

كقولك : قتلته لو لم أخف الله ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ من قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلظة وكثرة المبالغة^(١)

القول الثالث : أنّ المرأة همت بيوسف بالمعصية ، أمّا يوسف عليه السلام فقد همّ بها ليضربها ، ويدفعها عن نفسه ، فكان البرهان الذي رآه من ربّه أنّ الله سبحانه أوقع في نفسه أنّه إذا ضربها كان ضربه إيّاها حجة عليه ؛ لأنّها تقول : راودني فمنعته فضررتني ، ذكره ابن الأنباري ، وقيل : أنّه همّ بالفرار منها ، حكاه الثعلبي ، وهو قول مردول ، أفتراه أراد الفرار منها ، فلمّا رأى البرهان أقام عندها وأمسك؟! وقيل : همّ بها ، أي : تمناها أن تكون له زوجة^(٢) فدلالتي الهمّين مختلفتان ، ولا تصحّ هذا القيلات ؛ لأنّ سياق الآية يدلّ على أنّ همّه بها كان من جنس همّها به ، واختلافهما يكون في درجته ودافعه لا في نوعه .

المذهب الثاني : أنّ يوسف عليه السلام لم يهمّ أصلاً ، وأنّه لم يقع منه همّ بها البتّة ، وقال أصحاب هذا المذهب بهذا التأويل استناداً إلى ما تقتضيه اللغة ويوجبه التركيب ؛ لأنّ في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ تقديمًا وتأخيرًا ، والتقدير : لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها ، و(لولا) حرف شرط ، وتفيد امتناع الجواب لوجود الشرط ، فالهمّ منفي لوجود البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، فلمّا رأى البرهان

(١) أنوار التنزيل ١٦٠/٣ وينظر : مدارك التنزيل ، تفسير النسفي ص ٥٢٥ وروح المعاني للآلوسي ٤٠٤-٤٠٥

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٠-٢٣١ وزاد المسير ١٥٧/٤ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢١/٩ واللباب في علوم الكتاب ٦٥-٦٦

لم يقع منه الهمّ ، فقدّم جوب (لولا) عليها ، كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أنّ فلاناً خلّصك ، أي : لولا أنّ فلاناً خلّصك لكنت من الهالكين^(١)

قال القرطبي : ((لا خلاف أنّ همّها كان المعصية ، وأمّا يوسف فهمّ بها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ ٠٠٠ فإذن في الكلام تقديم وتأخير ، أي : لولا أنّ رأى برهان ربّه همّ بها ، قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الآية قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ، كأنه أراد : ولقد همّت به ولولا أنّ رأى برهان ربّه لهمّ بها))^(٢) نحو : ضربت زيداً لولا أبوه ، فامتنع الضرب لوجود الأب ، ونحو : لولا الرافدان لأفقرت البلاد ، امتنع الإفقار لوجود الرافدين ، وهذه الحجة اللغوية تحسم الأمر في هذه القضية ، بأنّه ما همّ أصلاً وتبطل ما ادعاه جمهور المفسرين ولا حاجة بعد ذلك إلى النظر في كلامهم

إلا أنّ أصحاب أقوال المذهب الأول ردوا على أصحاب هذا المذهب الحجة اللغوية التي استندوا إليها ، فقد نقل الطبري وغيره هذا التأويل واستبعدوه قال الطبري : ((وأما آخرون ممن خالف أقوال السلف ، وتأولوا القرآن ، فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة ، فقال بعضهم : معناه : ولقد همّت المرأة بيوسف ، وهمّ بها يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه ٠٠٠

وقال آخرون منهم : معنى الكلام : ولقد همّت به ، فتناهى الخبر عنها ، ثمّ ابتدئ الخبر عن يوسف ، فقيل : وهمّ بها يوسف لولا أنّ رأى برهان ربّه ، كأنهم وجّهوا معنى الكلام إلى أنّ يوسف لم يهمّ بها ، وأنّ الله أخبر أنّ

(١) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي ٤/١٥٧-١٥٨ والبحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي

٣٨٤-٣٨٣/٥

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/٢١١ وينظر : تاج العروس ٣٤/٦٧

يوسف لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهّمّ بها ، كما قيل : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء : ٨٣ { ويفسد هذين القولين أنّ العرب لا تقدّم جواب لولا قبلها ، لا نقول : لقد قمّت لولا زيد ، وهي تريد : لولا زيد لقمّت ، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين عنهم يؤخذ تأويله }^(١)

وذهب الزجاج إلى ما ذهب إليه الطبري فقال : ((وليس في الكلام بكثير أن تقول : ضربتك لولا زيد ، ولا هممت بك لولا زيد ، إنّما الكلام : لولا زيد لهممت بك ، و(لولا) تجاب باللام ، فلو كان : ولقد هممت به ولهّمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، لكان يجوز على بعد))^(٢) يعني أنّه يبعد جعل ﴿وهمّ بها﴾ جواباً لـ(لولا) من جهتين : إحداهما تقدمه ، والأخرى : عدم اقترانه باللام والصحيح أنّ يوسف عليه السلام لم يهّمّ أصلاً ، استناداً إلى الحجة اللغوية المذكورة ، واستبعاد الطبري ومن تبعه هذا التأويل ، وطعنهم في هذه الحجة اللغوية مردود ، بيان ذلك فيما يأتي :

١- ظهر لي أنّ الطبري ومن تبعه استبعدوا هذا التأويل بحجة أنّه لا يجوز تقديم جواب (لولا) عليها ؛ لأنهم لو أجازوا ذلك لوجب جعل ﴿وهمّ بها﴾ جواب (لولا) مقدّمًا ، ولوجب تبعًا لذلك أن يكون التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، ومن ثمّ لوجب امتناع الهّمّ لوجود البرهان ، فيكون الذي دفع الطبري ومن تبعه إلى القول بمنع تقديم جواب (لولا) عليها كان لجعل ﴿وهمّ بها﴾ متعلقة ومرتبطة بما قبلها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ لا بما بعدها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى﴾

(١) ينظر : جامع البيان ٢٢٠/١٢-٢٢١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٢/٣ والكشاف للزمخشري ٤٣٨/٢-٤٣٩ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٥٨/٤

(٢) ينظر : جامع البيان ٢٢٠/١٢-٢٢١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٢/٣ والكشاف للزمخشري ٤٣٨/٢-٤٣٩ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٥٨/٤

بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أي : لجعل الكلام انتهى إلى قوله : ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ ليكون يوسف والمرأة قد اشتراكا في الهمّ نفسه ، أي : أنه همّ بها بمثل ما همّت به ، فيكون ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ ليس جواباً لـ(لولا) مقدّماً عليها ، وليستى لهم أيضاً القول بأنّ جوابها محذوف من أجل أن يقدره بما يوافق مذهبهم ، فيكون تقدير الآية عندهم : ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها .

وهذا هو التقدير الذي صرّح به أتباع المذهب الأول ، فقد قال الزجاج : ((والذي عليه المفسرون أنه همّ بها وأنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة إلا أنّ الله تفضّل بأن أراه البرهان . . . والمعنى : لولا أن رأى برهان ربّه لأمضى ما همّ به))^(١) أي : لواقعها ، فيكون البرهان عنده صرفه عن مواععتها وليس عن همّه بها

وقال ابن الجوزي : ((قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال الزجاج : المعنى : لولا أن رأى برهان ربّه لأمضى ما همّ به ، قال ابن الأتباري : لزنا ، فلمّا رأى البرهان كان سبب انصراف الزنا عنه))^(٢)

وتقدّم قول الزمخشري : ((وقوله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ معناه : ولقد همّت بمخالطته وهم بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها ، فحذف ؛ لأنّ قوله ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ يدلّ عليه . . . فإن قلت : لم جعلت جواب (لولا) محذوفاً ، وهلا جعلته هو الجواب مقدّماً؟ قلت ؛ لأنّ (لولا) لا يتقدّم عليها جوابها))^(٣)

٢-تقدم أنّ الطبري ومن تبعه استبعدوا تأويل أصحاب المذهب الثاني بحجة أنّ جواب (لولا) لا يتقدم عليها ، في حين أنّ هذه القضية مختلف فيها ،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٨٢/٣

(٢) زاد المسير ١٥٩/٤

(٣) الكشاف ٤٣٨/٢-٤٣٩

فالكوفيون يجيزون تقديم أجوبة الشرط عليها ، فمن المعلوم ((أنّه إذا تقدّم على أداة الشرط ما هو جواب من حيث المعنى فليس عند البصريين بجواب له لفظاً ؛ لأنّ للشرط صدر الكلام ، بل هو دالٌّ عليه وكالعوض عنه ، وقال الكوفيون : بل هو جواب في اللفظ أيضاً ، ولم يصدرّ بالفاء لتقدمه ، فهو عندهم جواب (واقع في موقعه))^(١) وكذلك يكون جواب (لولا) لا يقترن باللام لتقدمه ، ومن أعلام البصريين من أجاز ذلك أيضاً كأبي زيد الأنصاري ، وأبي العباس المبرّد^(٢)

فالكوفيون لمّا أجازوا تقديم الجواب لا يكون هناك حذف حسب مذهبهم ، وأرى أنّ الأخذ بمذهب الكوفيين هذا، له ما يسوغه لأمرين :

الأول: أنّه يقلل من مواضع حذف جواب الشرط في القرآن الكريم.

والثاني: أنّه من المعروف في اللغة أنّ تقديم ماحقه التأخير في الأصل ، له دلالة بلاغية، فتقديم جواب الشرط لا بد من أن يكون له وجه من وجوه هذه الدلالة ؛ لذا ينبغي أن تدرس هذه المواضع في باب : تقديم جواب الشرط لا في باب : حذف جواب الشرط ، شأنها في ذلك شأن تقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم المفعول به على فعله.

وقد قال ابن عاشور : ((فالتقدير : ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها ، فقدّم الجواب على شرطه للاهتمام به ، ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب (لولا) بها ؛ لأنّه ليس لازماً ؛ ولأنّه لما قدّم على (لولا) كره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط ، فيحسن الوقف على قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ليظهر معنى الابتداء بجملة ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ واضحاً ، وبذلك يظهر أنّ يوسف عليه السلام لم يخالطه همٌّ بامرأة العزيز ؛ لأنّ الله سبحانه عصمه من الهمّ

(١) شرح كافية ابن الحاجب للرضي الأستريادي ١٠٤/٤

(٢) ينظر : تسهيل الفوائد لابن مالك ص ٢٣٨ والبحر المحيط ٣٨٤/٥

بالمعصية بما أراه من البرهان : قال أبو حاتم : كنتُ أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيتُ على قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الآية قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ، كأنه أراد : ولقد هممت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمم بها

وطعن في هذا التأويل الطبري بأنّ جواب (لولا) لا يتقدم عليها ، ويدفع هذا الطعن أنّ أبا عبيدة لما قال ذلك علمنا أنّه لا يرى منع تقديم جواب (لولا) على أنّه قد يجعل المذكور قبل (لولا) دليلاً للجواب ، والجواب محذوفاً لدلالة ما قبل (لولا) عليه^(١)

٣-تقدّم أنّ الطبري ومن تبعه استبعدوا التأويل الذي ذهب إليه أصحاب المذهب الثاني بحجة أنّه يمتنع تقديم جواب (لولا) عليها ، وهذا الامتناع حتى لو صحّ فإنّه لا قيمة له ؛ لأنّه كان ينبغي أن تكون نتيجة من منع وأجاز واحدة ؛ لأنّ من أجاز وجعل ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ جواب (لولا) مقدّمًا عليها ، جعل التقدير : لولا أن رأى برهان ربّه لهمم بها ، ومن منع وجعل جوابها محذوفاً فإنّ النحاة قد جعلوه بما دلّ عليه قبل (لولا) ، فيكون التقدير أيضًا : لولا أن رأى برهان ربّه لهمم بها ، قال أبو حيان الأندلسي : ((والذي أختاره أنّ يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ البتة ، بل هو منفي لوجود البرهان كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، ولا تقول : إنّ جواب (لولا) متقدّم عليها ، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري ، وأبو العباس المبرّد ، بل نقول : إنّ جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب : أنت ظالم إن فعلت ، فيفقدونه : إن فعلت فأنت ظالم (يفقدرون

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/٤٧-٤٨

الجواب المحذوف بنفس لفظ ما دلّ عليه قبل (لولا)) وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها ، فكان موجداً لهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنّه وجد رؤية البرهان فانتهى الهمّ ، ولا التفات إلى قول الزجاج : ولو كان الكلام : ولهمّ بها ، كان بعيداً فكيف مع سقوط اللام ؟! لأنّه يوهّم أنّ قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو جواب ، ونحن لم نقل بذلك ، وإنما هو دليل الجواب ، وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة ؛ لجواز أنّ ما يأتي جواب (لولا) إذا كانت بصيغة الماضي باللام ، وبغير لام ، نقول : لولا زيد لأكرمك ، ولولا زيد أكرمك ، فمن ذهب إلى أنّ قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو نفس الجواب لم يبعد (وهم الذين أجازوا تقديم جواب (لولا) عليها) ٠٠٠ وقد استدلّ من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب قال الله تعالى : ﴿إِنْ كَادَتْ تُنْبِئِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص : ١٠) فقوله ﴿إِنْ كَادَتْ تُنْبِئِي بِهِ﴾ إمّا أن يتخرّج على أنّه (نفس) الجواب على ما ذهب إليه (الذين أجازوا تقديمه) ٠٠٠ وإمّا أن يتخرّج ٠٠٠ من أنّه دليل الجواب (على ما ذهب إليه الذين منعوا تقديمه ، فيكون التقدير في كلا المذهبين) : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به ٠٠٠ والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب ؛ لأنّهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ، ولا يدلّ عليه دليل ؛ لأنّهم لم يقدرُوا لهّمّ بها) ولا يدلّ كلام العرب إلّا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط ؛ لأنّ ما قبل الشرط دليل عليه ، ولا يحذف الشيء لغير دليل عليه)) (١)

وهذا ما تجده في كتب الإعراب وهو تقدير الجواب في مذهب من منع بمعنى ولفظ ما دلّ عليه قبل (لولا) فقد جاء في إعراب الآية المذكورة : ((قوله

﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ((جوابها محذوف ، أي :

لأبدت به كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(١))

وكذلك قالوا في إعراب قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا

اللَّهُ﴾ : ((جواب (لولا) محذوف دلّ عليه ما قبله ، تقديره : لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي))^(٢)

وإذا تعدّر جعله بنفس لفظه ، فإنه يجعل بأقرب الألفاظ الدالة عليه ،

كقوله تعالى : ﴿لَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۗ لَوْلَا أَنْ

تُقَدِّدُونَ﴾ {يوسف : ٩٤} فجاء في إعرابه : ((جواب (لولا) الامتناعية محذوف

تقديره : لصدقتموني ، ويجوز أن يكون : لأخبرتكم))^(٣)

وجاء في الدرّ المصون : ((قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

جواب (لولا) : إما متقدّم عليها ، وهو قوله : ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ عند من يجيز تقديم

جواب أدوات الشرط عليها ، وإما محذوف لدلالة هذا عليه عند من لا يرى

ذلك . . . كقولهم : أنت ظالم إن فعلت ، أي : إن فعلت فأنت ظالم ، ولا تقول :

إنّ (أنت ظالم) هو الجواب ، بل دالٌّ عليه ، وعلى هذا فالوقف عند قوله :

﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ، والمعنى : لولا رؤيته برهان ربّه لهمّ بها ، لكنّه امتنع همّه بها

لوجود رؤية برهان ربّه ، فلم يحصل منه همّ البتة ، كقولك : لولا زيد لأكرمتك ،

فالمعنى : أنّ الإكرام ممتنع لوجود زيد ، وبهذا يتّخلص من الإشكال الذي يورد

، وهو كيف يليق بنبيّ أن يهّمّ بامرأة))^(٤)

(١) الدر المصون ٨/٦٥٣-٦٥٤

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/٤٢٤ والدر المصون ٥/٣٢٤

(٣) الدر المصون ٦/٥٥٧

(٤) الدر المصون ٦/٤٦٦-٤٦٧

وهذا هو الحقّ أنّه كان ينبغي أن يكون المذهب والتقدير عند من منع تقديم الجواب ومن أجاز واحداً ، أي : أن يكون التقدير عند كليهما : لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها ، فيكون المعنى عند الفريقين وبإجماع أهل اللغة والنحو أنّ الهمّ لم يقع البتة لوجود البرهان .

والجدير بالذكر أنّ هذا هو تقديره في كتب الإعراب ، فقد قالوا في إعراب قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ((و(أن رأى) في موضع رفع ؛ لأنّه مبتدأ... وقد حُذِفَ خبر المبتدأ ههنا والجواب معاً ، والتقدير : لولا رؤية برهان ربّه موجود لهمّ بها ، ولا يجوز أن يكون ﴿وهمّ بها﴾ جواب (لولا) لأنّ جواب (لولا) لا يتقدم عليه))^(١)

وقالوا : ((قوله : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جواب (لولا) محذوف تقديره : لهمّ بها ، والوقف على هذا ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ والمعنى : أنّه لم يهمّ بها))^(٢)

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ : بيّنت الآية بمقتضى قواعد اللغة أنّ الهمّ من يوسف لم يقع البتة ، فما هو الشيء الذي كان قبل الهمّ ؟ والجواب أنّ المرأة الفاتكة في الحسن والجمال إذا تزوّجت ، وتهيّأت للرجل الشابّ القويّ ، فلا بدّ أن يقع هناك بين الشهوة والحكمة ، وبين النفس والعقل محادثات ومنازعات ، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة ، وتارة تقوى داعية العقل والحكمة... ومثاله : أنّ الرجل الصالح إذا رأى الماء البارد فإنّ طبيعته تحمله على شربه إلّا أنّ دينه يمنعه منه ، فهذا لا يدلّ على حصول الذنب ، بل كلّما كانت هذه الحالة أشدّ كانت القوّة في القيام بلوازم الدين والعبودية أكمل^(٣)

(١) البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات بن الأنباري ٣٨/٢

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ٥٤/٢

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٦٦/١١

وقال القاسمي : ((قال أبو السعود : وفي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ آية بيّنة وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا ل قيل : لنصرفه عن السوء والفحشاء ، وإنما توجه إليه ذلك من خارج ٠٠٠ و(المخلصين) قرئ بكسر اللام بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح ، أي : الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم))^(١)

((فاتضح أن لا شبهة على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا معصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبّلية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها ، ولو لم توجد عندهم دواع جبّلية لكانوا إمّا ملائكة أو عالمًا آخر ، ولما كانوا ماجورين على ترك المناهي ؛ لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعًا ، والعنّين لا يُوجَر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأنّ الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأمّا الترك مع الداعية فهو كفّ النفس عمّا تتشوّف إليه^(٢) فهو عمل نفسي))^(٣)

وقد قيل : إنّه ((لو لم يوجد همّ لم يبق لقوله : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فائدة ، فنقول : بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أنّ ترك همّ بها ما كان لعدم رغبته في النساء ، ولا لعدم قدرته عليهنّ ، بل لأجل أنّ دلائل دين الله منعتة عن ذلك العمل))^(٤)

(١) محاسن التأويل ١٦٨/٦-١٦٩

(٢) تتشوّف إليه : تشّاقفه وتطمح إليه

(٣) محاسن التأويل ١٦٨/٦

(٤) اللباب في علوم الكتاب ٦٥/١١

ف(فائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية))^(١)

ثَبَّتَ المصادر والمراجع

-أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف بتفسير البيضاوي ، لناصر الدين أبي الخير ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي (ت : ٦٩١هـ) إعداده وتقديمه محمد عبد الرحمن المرعشي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان (د-ت) .

-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، (ت : ٧٤٥هـ) حقق أصوله الدكتور عبد الرزاق المهدي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

-البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: الدكتور طه عبد الحميد طه، الناشر: الهيئة المصرية العامة (دار الكاتب العربي) ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

-تأويل مشكل القرآن ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت : ٢٧٦هـ) الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م

-تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى بن محمد الحيني الزبيدي (ت : ١٢٠٥هـ) اعتنى به ووضع حواشيه الدكتور عبد المنعم خليل إبراهيم والأستاذ كريم سيد محمد محمود ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٧م .

(١) محاسن التأويل / تفسير القاسمي ١٦٧/٦-١٦٨ وينظر : روح المعاني للألوسي

٤٠٥/٦ والكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين ٥٢٧/٦

- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري
(ت:٦١٦هـ)، دار الفكر، بيروت ، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد
(تفسير ابن عاشور) محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ) مؤسسة التاريخ
العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك، تحقيق: محمد كامل
بركات، دار الكتاب العربي للطباعة، مصر، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م
- تفسير مقاتل بن سليمان (ت : ١٥٠هـ) تحقيق أحمد فريد ، الطبعة
الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م .
- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت : ٣٧٠هـ)
تحقيق د-رياض زكي قاسم ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان
١٤٢٢هـ=٢٠٠١م .
- جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري (ت:
٣١٠هـ) ، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت،
١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م.
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر
القرطبي (ت : ٦٧١هـ) تحقيق الدكتور حامد أحمد الطاهر ، الطبعة الأولى ،
دار العلم الجديد ، القاهرة ١٤٣١هـ=٢٠١٠م .
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأحمد بن يوسف المعروف
بالسمين الحلبي (ت:٧٥٦هـ) تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد محمد الخراط ،
الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت : ١٢٧٠هـ) ، ضبطه

وصححه علي عبد الباري عطية الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت
١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م .

-زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن
علي بن محمد الجوزي (ت:٥٩٧هـ) وضع حواشيه ، أحمد شمس الدين ،
الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م .

-شرح صحيح مسلم لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، قسم
التحقيق والبحث بالمكتبة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، القاهرة
١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م

-شرح كافية ابن الحاجب ، لرضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي
(ت : ٦٨٦هـ) قدم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب ،
الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .

-الصاحح للإمام إسماعيل بن حماد الجوهري (ت : في حدود
٤٠٠هـ) اعتنى به خليل مأمون شيحا ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، لبنان
١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .

-عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، للشيخ أحمد بن يوسف بن
عبد الدائم ، المعروف بالسمين الحلبي (ت : ٧٥٦هـ) تحقيق حمد باسل عيون
السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د-ت)

-العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٥هـ) الطبعة الثانية ، دار
إحياء التراث العربي ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م

-فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن
حجر العسقلاني ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الطبعة
الثانية ، دمشق ، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ضبطه وصححه أحمد عبد السلام دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د-ت).

-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) رتبه وضبطه وصححه، محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

-الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين المتوفى ١٤٢١هـ اعتنى به وخرّج أحاديثه أبو عبد الرحمن عادل بن سعد

- اللباب في علوم الكتاب، لأبي جعفر عمر بن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى بعد سنة ٨٨٠هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

-لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت: ٧١١هـ)، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.

-محاسن التأويل، تفسير القاسمي محمد جمال الدين القاسمي المتوفى ١٣٣٢هـ=١٩١٤م تحقيق محمد باسل عيون السود، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م=١٤٢٤

-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ) تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت: ٧١٠هـ) اعتنى به عبد المجيد طعمة حلبي ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت : ٧٧٠هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٤هـ=١٩٩٤م .
- معاني القرآن ، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ) وضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق الزجاج إبراهيم بن السري (ت: ٣١١هـ) تحقيق الدكتور عبد الجليل عبد شلبي، دار الحديث ، القاهرة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
- المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ) ضبطه هيثم الطعيمي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٨م .
- مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت : ٣٩٥هـ) تحقيق أنس محمد الشامي ، دار الحديث ، القاهرة ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م
- الملخص في إعراب القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي (ت : ٥٠٢) تحقيق د-يحيى مراد ، دار الحديث ، القاهرة ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت : ٦٠٦هـ) الطبعة الثالثة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م .

تأويل قوله تعالى : (وهمّ بها) أ.د. عبد الجبار فتحي زيدان الحمداني

- الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، لأبي الحسن علي بن أحمد
الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ
علي محمد معوض، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت،
١٤١٥هـ=١٩٩٤م.